رسالة بغداد

معرض فوتوغرافي عن النواعير

10 نيسان (ابريل) برعاية وزيرة الثقافة والسياحة والاثار عبد الامير الحمداني يقام للمدة من 10 – 11 نيسان الجاري معرض للمصور الفوتوغرافي غسان عيادة منشد. وقالت بطاقة دعوة تلقتها (الزمان) امس ان (المعرض تقيمه مؤسسة ميزوبوتاميا للتنمية الثقافية بالتعاون مع دائرة الفنون العامة بوزارة الثقافة) واضافت ان (المعرض يقام تحت عنوان الناعور على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للانسانية ويستمر لمدة يومين).

قراءة في رواية سعد سعيد

صوت خافت جداً ولكنه قوي

شجاع العاني
بغداد

من يقرأ روايات الكاتب سعد سعيد، يقف على ظاهرة خاصة بالكاتب، ألا وهي خصب مخيلته واتساعها، والتي هي عامل ايجابي وسلبي في الوقت نفسه، إذ تتحول إلى عامل ضعف حين يعمد الكاتب إلى شطر السرد وتوليده في عدد من رواياته، بدءاً من روايته الأولى "الدومينو" وحتى ما قبل الأخيرة "انسانزم"، مما يؤدي إلى تكثير الأحداث وتكرارها وتشعبها في العمل الروائي. إلا أن الكاتب في روايته الأخيرة "صوت خافت جدا" يحقق قفزة نوعية في فنه القصصي، فهي تخلو من الانشطار وتوليد الأحداث، فضلاً عن أنها ذات نزعة حوارية عالية تبرز فيها أصوات الشخصيات وخاصة صوت بطلة الرواية. وفي هذه الرواية أو الأحرى (القصة الطويلة القصيرة) يعود الروائي إلى موضوعات الرواية العراقية التي عرفتها حتى السبعينات، ثم ما لبثت أن انحسرت خاصة بعد الاحتلال الأخير للعراق عام 2003م، وأعني بها الموضوعات ذات الطابع الاجتماعي كالغنى والفقر وصراع الطبقات والمآسي الاجتماعية كالقتل غسلاً للعار، فضلاً عن موضوعات برزت بعد الاحتلال كالتطرف الديني والتفجيرات والقتل العشوائي والخطف والاغتصاب وانتشار الاستجداء بشكل واسع في الشارع.

مضامين خاصة

ويتصل بهذه الموضوعات مضامين خاصة تقوم على نقد المجتمع والانتصار للطبقات والشرائح الفقيرة والمعدمة في المجتمع والتي تشكل قاع المجتمع العراقي.

ولقد اشتقت الرواية عنوانها من هذا المحتوى، فالبطلة وأختها تستمرئان منذ طفولتهما ترديد كلمة (نئيم) بديلاً عن كل مظاهر الرفاه وتعوضان بها حاجياتهما الملحة، وهي تعني الصوت الخافت جداً، أي صوت الفقراء الذي اتخذ منه الكاتب عتبةً لنصه القصصي! ومن هنا يمكن القول أن الرواية تنتمي إلى الواقعية النقدية أو تعود إلى احيائها بعد أن انحسرت في أدبنا العراقي.

وقصة "صوت خافت جداً" هي ببساطة قصة فتاة أرادت بكل طاقة الحياة فيها، أن تحب ووجدت موضوعاً لحبها الطبيب الذي ساعدها لتعمل سكرتيرة في عيادته، إلا أنه لم يبادلها الحب، وحين تكتشف وهي الفتاة الفقيرة أن أختها الطالبة الجامعية "سلوى" قد باعت عفتها لقاء ملابس داخلية مرتفعة الثمن لا ترتديها إلا بنات الأغنياء، قررت أن أفضل حل لطمس الفضيحة هو الهجرة خارج العراق، وتفاتح الطبيب بذلك فيساعدها بمبلغ من المال ليمكنها وأختها على الهجرة، فتعرض عليه أن ينالها جسدياً قبل الرحيل، لأنه الرجل الذي أحبت فيرفض ذلك قائلاً أنه لا يمتلك شهية للنساء. وحين يفهم الطبيب منها أن عفتها تشكل عبئاً عليها وأنها ذاهبة لتتحرر منها يسألها، أذاهبة أنت هناك لتتحرري من عفتك؟ تجيبه: "هناك سأكون شريفة، كما يجدر بي، ولكن وفق مفاهيمي" ص .264قلنا أن صوت البطلة هو صوت الفقراء الخافت جداً، ولكنه على صعيد الفن القصصي صوت مرتفع جداً، إذ يتضافر على سرد الأحداث راويان هما الراوي الموضوعي كلي العلم المقتحم للقصة، وخاصة في مطالع الفصول حيث يفتتح الراوي هذه الفصول برأي أو فكرة أوحكمة، والراوي الثاني هو الروائي الذاتي أو الراوي البطل حيث تقوم "سفانة" بطلة القصة برواية الأحداث مشاركة بذلك الراوي كلي العلم في روايتها، وتتسم رواية البطلة باستخدام اسلوبها ونغمتها في السرد بحيث تستخدم الألفاظ والعبارات العامية إلى جانب الفصحى. كما تتسم بروح التهكم والسخرية، وكأنها تتخفف من مأساتها الإجتماعية بابتسامتها وسخريتها.

صوت اخر

وفي خطاب البطلة وسردها يكمن صوت آخر، هو صوت صديقتها "فضيلة" التي قتلها أخوها غسلاً للعار، ليتسنم بعد ذلك قيادة حركة دينية مسلحة، وينال من مجتمعه المحلي الصغير عفوه عن ما اقترف من أفعال مضرة بمصلحته "كانت فضيلة قمة بالنقاء.. آه لو تدري كم بكيتها يوم سمعت بذبحها.. ذبحها الحقير.. الكارثة هي أن سمعته تحسنت كثيراً في المنطقة بعد أن ذبحها" ص 241وتتجه البطلة في حكايتها للقصة إلى صديقتها فضيلة بحيث يرن في خطابها صوتان، صوتها هي، وصوت صديقتها المغدورة فضيلة، عبر ما يدعوه "باختين" بالخيال الحواري، إذ وهي تسرد الأحداث مخاطبة لفضيلة نسمع ردود فضيلة عليها، وردها هي على هذه الردود، ومثال هذه الردود قول البطلة مخاطبة صديقتها المغدورة: "فضيلة ما بك؟.. أنا أفهم منك عشرات المرات وأعرف ما أقول، فلا تظلي تناقشينني، اسمعي فقط.. وإلا ماذا؟ أنا أعرف بأنني لا أستطيع أن أقاطعك يا نبض قلبي" ص .202وقد يكون الحوار باللغة العامية لا الفصحى كما هو الأمر حين تتخيل "سفانة" أن صديقتها تظن بها الظنون: "ها أدبسن، بشنو تفكرين؟ ولج شجاب هاي السالفة ببالج؟ عم أحدثك؟ ثم ألم تجدي خبيرة أفضل مني تسألينها عن هذا؟ ألا تعرفين بأنني مثلك، ما زلت مثقلة ببكارتي.. فمن أين آتيك بخبرة في شيء لم أمارسه؟" ص 201وهذا يعني أن فضيلة قتلت ظلماً ولم تفعل شيئاً تستحق عليه القتل. إن هذا الخيال الحواري واستخدام الحوار الصامت أو المونولوج إلى جانب ذلك أدى إلى بروز الشخصية وحسناً فعل الكاتب حين جعل البطلة تتحدث بلغة وأسلوب هكا غير لغة وأسلوب الراوي الموضوعي كلي العلم، كل ذلك جعل هذا الرواية رواية حوارية قلّ نظيرها في السرد أو الرواية العراقية!. أود أن أشير إلى بعض التناصات في الرواية، ولعل أبرزها الإشارة إلى نجيب محفوظ وشخصية "زيطة" في زقاق المدق، تقول البطلة: "أنا أتصور لو جاء زيطة إلى العراق الآن، لعجز عن استخدام مواهبه، فقد أصبح عندنا زيطات" ص ?28ووددت لو أن الكاتب أشار إلى الشخصية الأساسية التي أستنسخ منها زيطة وهو "ميتشام" في رواية "البنسات الثلاثة" لبريخت، كما كنت أتمنى لو أن القاص عمد إلى اقتطاع بعض نصوص أو شعر المتصوف الحسين بن منصور الحلاج الذي تذهب البطلة لزيارة ضريحه بعد أن حاصرتها المأساة، في مجتمع تصفه الرواية بأن فيه "يتوطن.. الحقد، وتتسيد الكراهية" ص.261 وتفتتح الرواية برسالة من "سفانة" إلى الطبيب فارس الذي عملت معه، تخبره بأن المجتمع الذي تعيش فيه، قدم لهم الأمان، وهيأ لهم سبل العيش فوراً، ولكنها لم تنس موطنها العراق وهي مستعدة للعودة باشارة منه، لأنها لا زالت تحبه.

أشد على يد الكاتب وإلى مزيد من التطور والإبداع.

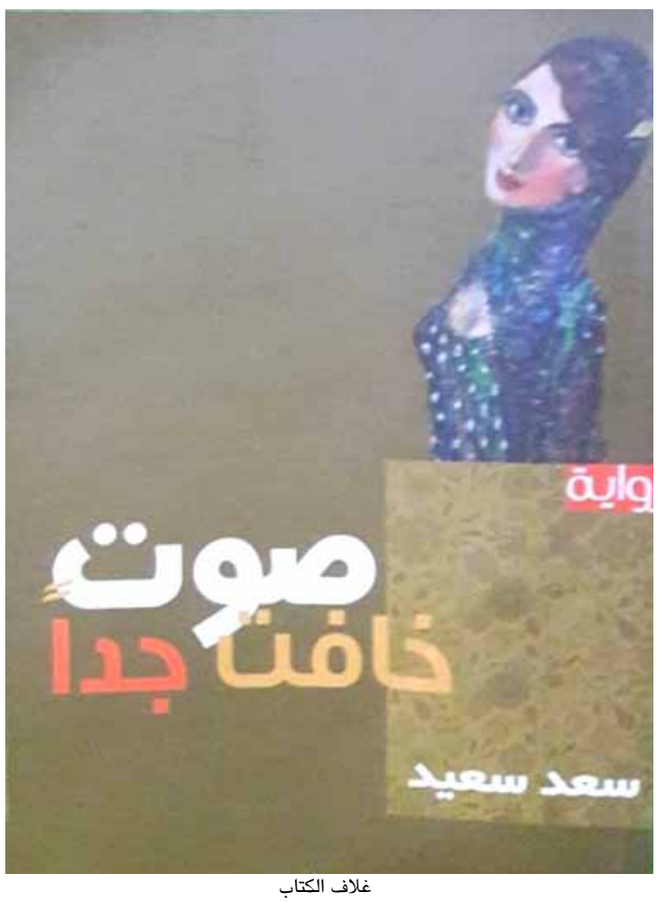

غلاف الكتاب

للبحر سلطة قسرية تتحدى البشر

جماليات المكان بين المصطلح والمعنى

مؤيد جواد الطلال
دمشق

هنالك أمران مهمان في موضوع ((جماليات المكان))، حيث أن القيمة الحقيقية هي طريقة التعبير عن هذه الجمالية. وكان الأدق والأصوب في عملية نحت هذا المصطلح أن يكون ((التعبير عن جماليات المكان))؛ إذ أن المكان يمكن أن يكون جميلاً –خاصة إن كان جزءاً من الطبيعة الخلابة – بالنسبة للجميع بدءاً من الطفل مع المرور بالإنسان العادي وانتهاءً بالمبدع (الفنان أو الأديب ..). غير أن هذا المكان الجميل –المتفق عليه –يستمد جماليته، في التحليل الأخير، ليس من طابعه الغفل (المعطى)، بل من رؤية العين ومن الذهن والاحساس ناهيك عن أسلوب التعبير عنه. كما إن هنالك أماكن غير جميلة: موحشة، قذرة، مخيفة أو مريبة، مظلمة ومغلقة تنقبض نفس الشخص الرائي منها .. هنالك قاع المدينة، السجون والمستشفيات، المواخير وبيوت الدعارة، وهنالك أحياء شعبية مبتلاة بالفقر والمرض والتخلف والوساخة، ولعل هذه الأماكن –عند حنا مينه أو غيره من الكتاب أو الفنانين –هي الأخرى تريد التعبير عنها أو دراستها ضمن العمل المنجز (إن كان إبداعياً أو أقل من ذلك)، فكيف سنتعامل مع مفهوم ومصطلح ((جماليات المكان)) ؟! أما الأمر الثاني في هذا الموضوع فيرتكز على مفهومنا للأوليات في كل عملية إبداع وخلق أدبي أو فني بأشكاله متعددة الألوان والاهتمامات. وأظن أن الاهتمام بموضوع المكان لا يجب أن يحتل المقام الأول في سلسلة الأولويات التي يمكننا أن نعد عشرة من أركانها مثل " رؤيا العالم " التي تشمل الفكرة والفلسفة والهدف من العمل الإبداعي، إضافة إلى الموقف كالانحياز إلى طبقة أو فئة اجتماعية، وكذلك التحليل النفسي الذي تنهض عليه أو تستثمره الكثير من الأعمال البلاغية الكتابية، أو قضايا الحب والعشق الإنساني خاصة إذا كان غريباً واستثنائياً وملفتاً للنظر □ وما أكثر القضايا الإنسانية ومشاكل النفس البشرية ؟!! ○ .. ثم تجيئ المهارة الفنية في مجمل عملية الخلق الإبداعي، ومنها قضية استثمار موضوعة المكان كعنصر فني من مجموعة عناصر البنية الفنية للإنتاج الإبداعي، مع ملاحظة إن الموسيقى – كفن من الفنون الراقية – تخلو أصلاً من عنصر المكان، من دون أن نقلل من أهمية المكان وجمالياته إذا ما استخدم استخداماً حسناً. إن التطرف والمغالاة في تسليط الأضواء على المكان، وكتابة كتب كاملة عنه أو التخصص به كفقرة أساسية، كما لو كان أول وأهم عناصر الإبداع، فأعتقد إن مثل هذا التطرف والمغالاة يمكن عدهما كشكل من أشكال التفنن في البحث عن سبل نجاح جديدة تحاول أخذ صفة أو سبق الابتكار أو تقليد لأمر يحتل ما يسمى بموقع الاهتمام والصدارة في الموجة الجديدة أو المودرن (المودة) كما لو أننا نرقص مع أي جوقة ! إن المكان يحتل مساحات شاسعة ومنوعة من رواية تولستوي ((الحرب والسلام))، مثلاً، غير إن معظم نقاد العالم المهمين أو المتمكنين من أدواتهم النقدية أعطوا للطابع الملحمي الإنساني والعمق الفلسفي والروحي والأخلاقي والقضايا الاجتماعية التي طرحتها تلك الرواية الملحمية العظيمة كامل الأولوية على موضوعة المكان وجمالياته .. وستظل هذه الرواية تُقرأ لأجيال متعاقبة في حين لا تشكل الروايات الفرنسية التي احتل فيها المكان موقعا مهماً، وأطلق عليها النقاد اسم موجة الرواية الجديدة أو الرواية المضادة أو حتى " اللارواية " كما هو الحال في بعض أعمال ((ناتالي ساروت)) أو (ميشيل بوتور) أو >>آلان روب غرييه <<أو غيرهم من بعض الكتاب الغربين أهمية تذكر بالقياس إلى رواية الحرب والسلام التي ضربنا بها مثلاً لأهمية المضامين الإنسانية والاجتماعية والروحية بالقياس إلى احدى الزوايا أو الجوانب القية التي تشكل جزئية من جزئيات الخلق الإبداعي ككل، من غير أن نكون معادين للموجات الجديدة في الخلق الإبداعي أو الوصول إلى أساليب فنية مبتكرة ومتجددة. إننا نتحدث هنا عن موضوعة ((جماليات)) المكان بالتحديد وأولويتها خاصة في النقد الأدبي. وكي نقرّب الصورة –الرؤية –المفهوم نأخذ على سبيل المثال رواية □□ مدينة الله ○○ للدكتور حسن حميد التي يأخذ فيها المكان، وصور جمالياته المتعددة، مساحة وأهمية مميزة لاسيما وأن المقصود بمدينة الله هي (مدينة القدس) المقدسة والتي تحمل عطر التاريخ. غير أنني كناقد أدبي هل أكرس دراستي عن الرواية للمكان أم عن الشعب الذي سُلب وأغتصب مكانه، أرضه وعرضه ورزقه ومراتع طفولته، ويصارع يومياً بالحجارة واللحم الحي الأعداء الذين يريدون اغتصاب المزيد من أراضيه ومقدساته أم ألف وأدور وأخصص دراستي (أحصرها) في موضوعة ((جماليات المكان))؛ وبشكل أدق أسلوب التعبير عن جماليات المكان ؟!

جماليات المكان

مثل هذه التساؤلات والأفكار فرضت نفسها على تفكيري وأنا أقرأ كتاب الباحث الايراني (مهدي عبيدي) المعنون بجماليات المكان في ثلاثية حنّا مينه: حكاية بحار –الدّقل – المرفأ البعيد [والتي تتخذ البحر أساساً لها في البناء العام]، الكتاب الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب (دمشق (2011 –، والذي أردت ادخاله بوصفه أحد مصادر كتابي عن ((مينه))؛ فوجدته ينتهج البنيوية كوسيلة بحث ويرسم الجداول والدوائر والمثلثات والأسهم وأشكال التعابير الهندسية المختلفة / المتعددة ليصل إلى ذات الفكرة التي يعبر فيها عن سطوره المكتوبة باللغة العربية الفصحى، كما لو أنه يستخدم وسيلتين لنفس الغاية: التعبير عن جماليات المكان في هذه الثلاثية التي تسمى بثلاثية البحر في أدب ((مينه))، على الرغم من أنه لا يقف عند ما هو جميل فقط ، بل يتحدث عن الأماكن الموحشة والمغلقة والموبوءة والسجون ومساكن الفقراء ومقاهيهم التي يتجمع بها أحياناً الحشاشون ومتعاطي المخدرات .. الخ

تناقضات الحياة في بحر ((مينه))

في دراستنا عن مينه ككل، في رواياته وقصصه القصيرة معاً، سلطنا الضوء على الكثير من هذه المتناقضات الإيجابية والسلبية التي تشكل وحدة الحياة أو وجهي العملة الواحدة –التي هي سمة أساسية من سمات أدب ((مينه)) – لكننا ركزنا بالدرجة الأولى على موقفه المتناقض من المرأة؛ وسنستمر في تسليط الضوء ذاته في كل سطور الكتاب لاسيّما في رواياته الأخيرة. غير أن الكاتب الايراني (مهدي عبيدي) سلط الضوء بالدرجة الأولى على موقف ((مينه)) من البحر بوصفه رمزاً من رموز الحياة، والذي يحوي كل تناقضاتها وتضاداتها، لاسيّما العنصرين الأساسيين: الحياة والموت في الآن. بل وجدت أن ((مينه)) يُشبّه البحر مثل المرأة ((لا تعرف حرده من رضاه))، ويعطي التشبيه ذاته للمرأة " اللغز " متقلبة الأهواء. ولأن (مهدي عبيدي) جعل من المكان هدفاً ومنهجاً لكتابه || جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه ||، الذي يبدو أنه رسالة جامعية؛ ولأن البحر شغل أوسع المساحات من هذا المكان لاسيّما وأنه حصر بحثه فيما يسمى ثلاثية البحر (حكاية بحار –الدقل –المرفأ البعيد)، فإننا سنثبت الخصائص / السمات والعناصر/ الإيجابية والتوصيفات الأخرى المعاكسة التي يحتويها البحر على ضوء ما اقتبسه الباحث الايراني من هذه الثلاثية التي تشمل الدّقل –الرواية التي أخذت الفصل التاسع من كتابنا –إضافة إلى ما كنا قد ذكرناه عن البحر في فصول سابقة خاصة في روايتيّ □□ الشراع والعاصفة ○○ والياطر:

× البحر أب وجدّ رحيمان –إنه أخي –صديق طيب –سيد وصديق الوجود –مكان فسيح يأخذ فيه الإنسان الحرية والنشوة، ويمنح الصفاء والرغبة في التأمل .. الخ ؛ مقابل هذا تصف والدة (سعيد) البحر بأنه غول وتكرر باستمرار إن البحر غدار وعدو، وكان قد سلب منها زوجها ولا تريده أن يسلب ابنها.

× البحر عند ((مينه)) هو مصدر رزق وسد العوز. منه الخير والعطاء والبركة، تقابله حياة الفقر التي تلازم الصيادين والبحارة والعاملين في الموانئ أو في السفن الصغيرة والكبيرة.

× البحر مكان غامض وممتع في آن واحد، مغامرة كبرى ربما تكون ناجحة أو مهلكة. فيه طيور وزواحف وحيوانات أليفة وأخرى مفترسة (أي المتناقضين معاً).

حديث الانتظار

×الحديث عن البحر يعني الحديث عن الحنين والانتظار يقابله الحديث عن الكوارث والعواصف المدمرة، الخوف، الفراق ...

× البحر معلم، لكنه بالمقابل يريد الشجاعة وروح المغامرة والاستعداد للمقارعة والصراع الذي يصل حدّ الموت: ((المقاومة أو القاع))، ولا خيار بينهما.

× مع أن البحر يمنح الإنسان الكثير من الخيرات والجمال: اتساعه وزرقته ومراقصة بعض مرتاديه والعاملين فيه لمياهه وأمواجه كما لو أنهم يراقصون أنثى ساحرة؛ ومنه خرجت أساطير جميلة مثل ((عروس البحر))، وهدير البحر مثل ((أغنية تترية عاطفية))، زبده ورمله وسواحله جميلة ...

... وعلى الرغم من أن والد سعيد (بطل ثلاثية البحر) كان يقول ((لا شيء كالإنسان، لا مخلوق أقوى منه، ولا كائن أعظم منه)) غير أن الإنسان يغدو في بعض حالات غضب وعواصف البحر ضعيفاً مثل قشة في مهب الريح؛ وقد صوّر ((مينه)) بعض هذه العواصف المدمرة خاصة في □□ الشراع والعاصفة ○○ وفي الثلاثية البحرية المذكورة.

× وفي نهاية المطاف فإن للبحر سلطة قسرية يتحدى بها البشر وينتصر عليهم، ولذا فإنه هزم سعيد –كما غيّب أباه صالح حزوم –ولذلك يفتتح ((مينه)) ثلاثيته بالسطور الآتية: ((وداعاً أيها البحر. لقد انتهى كل شيء الآن. لم يعد الماء ملعبي ومملكتي. لقد تعب البحار ولم يتعب البحر)). كثيرة هي الصفحات التي تتغنى بالبحر في روايات ((حنا مينه))، خاصة الروايات ذات الطابع البحري، وربما كُتب الكثير من الصفحات حول هذه الخاصية أو الجزئية التي تمتع بها الكاتب وميزت الكثير من أعماله الأدبية، بيد أني وجدت في صفحة (302 من رواية الدّقل)، وما بعدها، أجمل صفات التغني بالبحر؛ إذ يصف الروائي بمهارة فنية فائقة، وخبرة لغوية وشعرية، وتجربة حياتية عميقة، عملية إقلاع السفينة التي يركبها بطله (نموذجه الفني: سعيد) لأول مرة، وكيف سارت الأمور في البدء برخاء ونشاط وحيوية ومسرّة لحين ما حلت العاصفة، وما أدراك ما العاصفة البحرية ؟! غير أن هذه الصفحات كانت مرتبطة، وبالدرجة الأولى، بالإنسان وقضاياه الاجتماعية والمعيشية والروحية لاسيما الحالة النفسية التي كانت تجتاح أعماق سعيد، وليست بجماليات المكان الذي لا يمكن أن يكون هو الغاية لذاتها حتى في الشعر الرومنسي القديم الذي استفاض وأطنب كثيراً في وصف الطبيعة وجمالها وعجائبها وغرائبها. ولذلك فإن جمالية التعبير عن المكان –التي هي وسيلة فنية لا يستهان بها على الاطلاق –تحسب لصالح الكاتب ومهارة أدواته الفنية كجزء مكمل لعظمة وجمالية الإبداع والخلق، وليس العكس.

ناتالي ساروت

ميشيل بوتور

حسن حميد